حديث «دلني على عمل»
بشرح الطيبي

"دراسة بلاغية"

دكتور

دخيل الله محمد الصحفي

أستاذ مساعد

جامعة أم القرى- كلية اللغة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد بين يدى الدراسة

العلامة الطيبى هو الحسين بن محمد بن عبد الله الطيب الامام المشهور، صاحب شرح مشكاة المصابيح وغيره.

يقول فى ترجمته ابن حجر العسقلانى:

«قرأت بخط بعض الفضلاء: كان ذا ثروة من الارث والتجارة فلم يزل ينفق ذلك في وجوه الخيرات، إلى أن كان فى آخر عمره فقيراً.

قال: وكان كريما متواضعا، حسن المعتقد، كثير الرد على الفلاسفة والمبتدعة، مظهرا فضائحهم، مع استيلائهم على بلاد المسلمين حينئذ، شديد الحب لله ورسوله، كثير الحياء...

مقبلا على نشر العلم، آية فى استخراج الدقائق من القرآن والسنن شرح الكشاف شرحاً كبيراً، وأجاب عما خالف أهل السنة أحس جواب، يعرف فضله من طالعه.

وصنف فى المعانى والبيان، وسماه التبيان، وشرحه، وأمر بعض تلامذته باختصار مصابيح السنة»[1].

وبعد أن فرغ من وظيفة التفسير توجه إلى مجلس الحديث، وبعد أن صلى النافلة بمسجد عند بيته انتظر الفريضة فمات وهو جالس متوجها إلى القبلة، وذلك يوم الثلاثاء ثالث عشر من شعبان ٧٤٣هـ[2].

---

(١) مصابيح السنة للامام البغوى جمع فيه ٤٧٢٩ حديثا (معجم البلدان لياقوت الحموى (١/٤٦٧) معجم المؤلفين لرضا كحالة (٤/٦١).

(٢) الدرر الكامنة (٢/٦٨)

وقد شرح الامام الطيبى الاحاديث الواردة فى كتاب «مشكاة المصابيح» للامام التبريزى المشار إليه من قبل ويحتوى على ٦٢٤٠ حديثا بزيادة ١٠٥١ حديثا على مافى كتاب البغدى الذى هو أصل كتاب«مشكاة المصابيح» للامام التبريزى تلميذ الامام الطيبى.

وسمى الطيبى شرحه لمشكاة المصابيح: الكاشف عن حقائق السنن وقد طبع هذا الكتاب لأول مره بتحقيق جماعة من علماء باكستان بعناية «إدارة القرآن والعلوم الإسلامية- كراتش- باكستان فى العام الهجرى ١٤١٣هـ بعنوان :

شرح الطيبى على مشكاة المصابيح المسمى بـ «الكاشف عن حقائق السنن»

فى اثنى عشر مجلداً، وقدم له أبرز محققيه سماحة الشيخ المفتى والمحدث محمد تقى العثمانى، قاضى المحكمة الشرعية العليا بباكستان. ونائب رئيس المجمع الفقهى الإسلامى بجدة.

وقد تناول الامام الطيبى شرح الأحاديث النبوية الواردة فى المشكاة شرحا بلاغيا بالإضافة إلى شروحه الأخرى لها ومن مطالعتنا لهذا الكتاب تبين لنا أنه لم يوجد له نظير فى عنايته بتحليل التصور البلاغى فى تركيب الحديث، سواء مايرجع فيها إلى المعانى أو البيان أو البديع. وله دقائق رائعة جداً فى الشرح والكشف عن وجوه البيان فى العبارات النبوية ولكنه يميل إلى الاختصار ولا يتوسع إلا فى بعض المواضع.

وهذا ما حدا بنا إلى تتبع تحليله للصور البلاغية فى حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه، الذى سأل فيه النبى صلى الله عليه وسلم عن عمل يدخله الجنة، ويباعده عن النار.

وهو حديث موسوم بالطول، والاحتواء على كثير من التناول البلاغى فى بناء جملة وعباراته.

والحديث رواه الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه وعملنا فى هذه الدراسة تتبع ماقاله الإمام الطيبى من مفردات الحديث وجملة من الناحية البلاغية مع بسط ما أجمل وتوضيح ما أغمض، والتعليق على مالم يحالفه الصواب فيه وبيان مميزات الطيبى ورصد اضافاته مع الاحتكام إلى القواعد البلاغية التى ارتضاها جمهور البلاغيين.

وقد قمنا بذكر نص الحديث بعد هذا التمهيد وقبل الشروع فيما أردناه منه. وبالله التوفيق.

د. دخيل الله محمد الصحفى

نص الحديث

«عن معاذ قال: قلت يا رسول الله اخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار. قال : لقد سألت عن أمر عظيم، وانه ليسير على من يسره الله تعالى عليه: تعبد الله ولاتشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت. ثم قال: إلا ادلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار. وصلاة الرجل فى جوف الليل، ثم تلا «تتجافى جنوبهم عن المضاجع..» حتى بلغ «يعملون» ثم قال: الا ادلك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ قلت بلى يا رسول الله قال : رأس الأمر الاسلام، وعموده الصلاة، وذورة سنامة الجهاد. ثم قال: «الا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قلت بلى يانبى الله. فأخذ بلسانه فقال: كف عليك هذا، فقلت يا نبى الله: أو إنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال : ثكلتك أمك يامعاذ. وهل يكب الناس فى النار على وجوههم، أو على مناخرهم الا حصائد ألسنتهم»(١).

---

(١) شرح الطيبى (١/١٦٤) كتاب الايمان الحديث رقم (٢٩)

أما من جهة المعانى ففيه أبحاث :

(أ) قول الطيبى: فى أحوال الإسناد قوله : تعبد الله إلى آخره مخرج الإبتدائية حيث كان معاذ خالى الذهن غير عالم به، وإن كان طالباً»[1].

قلت: أخرجها مخرج الإبتدائية، يعنى الحال الأولى للمخاطب، وهى خلو الذهن ولذلك لم يؤكد له الخبر فى قوله: تعبد الله، ولاتشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت.

وهذا إخراج على خلاف ظاهر الحال، لأن المخاطب سائل، وحاله طلبى فكان ينبغى أن يؤكد له الخبر بمؤكد واحد. لكنه صلى الله عليه وسلم ترك هذا التوكيد ونزل المخاطب السائل منزلة خالى الذهن ذلك لأن السائل غير معاند وإنما سأل ليعلم ويعمل بدون منازعة. وليس كل سائل يؤكد له الخبر، وإنما الذي يؤكد له الخبر هو السائل الذى يتوقع منه العناد.

*****

قول الطيبى «قوله صلى الله عليه وسلم «لقد سألتنى عن عظيم، وإنه ليسير» مخرج الإنكارية لما رأى فيه من شائبة الإنكار من التهاون فى السؤال» حيث نزل خالي الذهن منزلة المنكر فأكد له الخطاب. وفى قوله صلى الله عليه وسلم («وإنه ليسير علي من يسره الله» إشارة إلى أن التوفيق كله بيد الله عز وجل، فمن يسر الله عليه الهدى اهتدى، ومن لم

---

(١) التبيان للطيبى /٥٣٦.

ييسره عليه، ولم يتيسر له ذلك قال تعالى «فأما من أعطى وأتقى. وصدق بالحسنى. فسنيسره لليسرى. وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى.» [(١)].

قوله «أو إنا لمؤاخذون» فلمجرد تأكيد التعجب الذى يعطيه همزة التقرير» [(٢)].

قلت: التوكيد فى هذه الجملة لا علاقة له بالمخاطب وإنما هو لتأكيد معنى نفسى عند المتكلم، والتوكيد جاء على خلاف الأصل.

(ب) قال الطيبى: فى إثبات المبتدأ فى قوله :«الصوم جنة» لأنه لاغنى عنه.

قلت: هذا الداعى الأول من دواعى ذكر المسند اليه عند البلاغيين واطلقوا عليه عبارة «لكون الذكر- أى ذكر المسند إليه- الأصل ولامقتضى للعدول عنه» [(٣)].

******

(جـ) قول الطيبى «فى تركه هو فى قوله :«تعبد الله» إذ التقدير هو أن تعبد الله فى وجه للتعويل على الذهن.

قلت: هذا يدخل تحت غرض من أغراض ترك المسند إليه يسمى «تخييل العدول إلى أقوى الدليلين من العقل واللفظ» يعنى أن الإعتماد عند الذكر على دلالة اللفظ من حيث الظاهر، وعند الحذف على دلالة العقل

---

(١) جامع العلوم والحكم ١٣٧/٢، والآيات: الليل ٥-١٠.

(٢) التبيان للطيبى /٥٢٦.

(٣) المطول/٦٩.

وهو أقوى لاستقلاله بخلاف اللفظ فإنه يفتقر إلى العقل، فإذا حذفت المسند إليه فقد خيلت أنك عدلت من الدليل الأضعف إلى الأقوى»[١].

******

(د) قوله : في الصفات: «يدخلني» صفة لعمل، إما مخصصه، أى مطلوبي عمل هذه صفته، أو مادحه أو كاشفة، فإن العمل إذا لم يكن بهذه الحيثية كأنه «عمل»[٢].

قلت : أرجح الأول. فإن التخصيص عند البلاغيين هو: تقليل الإشتراك الحاصل فى النكرات، ورفع الإحتمال الحاصل فى المعارف، وما ذكر شبيه بقولنا «رجل عالم، فإن «رجل» محتمل لكل فرد من أفراد الرجال، فلما قلنا «عالم» قللنا ذلك الإشتراك والاحتمال وخصصناه بفرد من لاأفراد المتصفة بالعلم[٣].

ولايعنى ترجيحى للأول أن الآخرين غير صحيحين، فالمادحة، لأن العمل يمدح بأن يدخل صاحبه الجنة، ولأن الأصل من الأعمال هو هذه الغاية وهى أن يدخل صاحبه الجنة.

أما الكاشفة فتعنى بيان عمل مبين بأن يدخل صاحبه الجنة.

وهذه الثلاثة صحيحة، وقد تستحسن أنت أيها القارئ الأول، أو الثانى، أو الثالث. وإنما رجحت الأول لما ذكرت.

وكذلك لما قال معاذ :«يعمل» فقد احتمل كل فرد من أفراد العمل، فلما قال «يدخلني.. الخ» خصصه هذا الوصف بعمل خاص هو المدخل للجنة والمباعد من النار.

---

(١) المصدر السابق/٦٨.

(٢) التبيان للطيبى /٥٢٦.

(٣) المصدر السابق/٩١.

(هـ) و«قول الطيبى «فى الاضافة قوله : «يانبى الله، ويارسول الله» إضافة تشريف كما فى بيت الله كلام واضح.

وقوله :«صلاة الرجل» إضافة لقوة أمر الصلاة، فإنه يريد بهذه العبارة أن الصلاة قد أضيفت إلى الرجل لقوة أمرها وثقل التكليف بها، والرجل هو المطيق القادر على القيام بها، قال تعالي :«وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين» ولايعنى ذكر الرجل أن المرأة غير قادرة على القيام بها، بل أضيفت للإشعار بقوة أمرها، وذكر الرجل من قبيل التغليب فإن الصلاة فرض على الرجل والمرأة.

وقوله «وفى رأس الأمر.. إضافة مجازية» أى إستعارة بالكناية.

*****

(و)- قوله : فى العلم «ثكلتك أمك يامعاذ» تنبيه وقرع عصا، ولفظة الله فى قوله: «ليسير على من يسره الله» مشعرة بعظمته لأن المقام مقام تعظيم أى الألوهية مقتضية لأن يكون تيسير الطاعات منه، وفيه لمحة من معنى قوله «وإذا مرضت فهو يشفين»(١).

قلت: فإنه يريد بتلك اللمحة أن تيسير العمل الذى يدخل الجنة ويباعد من النار لايكون إلا من الله تعالى كما أن الشفاء لايكون إلا منه «فهو يشفين» أسلوب قصر طريقه تقديم المسند إليه عن الخبر الفعلى والسياق يدل على إرادة هذا القصر.

*****

(ز) قوله :«فى إسم الإشارة «ذلك» إشارة إلى المذكور وهو قريب لتعظيمه» كلام واضح وقوله «هذا» لمزيد التعيين والإهتمام، أو التحقير كقولهم «المرء بأصغريه»(٢).

---

(١) التبيان للطيبى /٥٢٦، ٥٢٧.

(٢) التبيان للطيبى /٥٢٧.

قلت : فإنى أرجح الأول، فإن اللسان لايشار إليه إشارة تحقير وإن كانت آفاته كثيرة، فهو آلة البيان التى فضل الله به الإنسان على غيره وعده من نعمه العظيمة «علمه البيان» والتنظير الذى ذكره للتحقير لا أراه صوابا، بل هما صغيران حقيقة مع أن حقيقة الإنسان لاتكون إلا بهما، ولو كان الأمر كما قال لكان قوله صلى الله عليه وسلم فى القلب «إن إلا فى الجسد مضغة....» الحديث، يراد به تحقير القلب حيث عبر عنه بالمضغة، وهى كناية عن صغر الحجم.

****

(ح) قوله : فى المضمر: «لاتشرك به»، وهو إما عائد إلى الله أو إلى مادل عليه «تعبد الله» لكن الثانى أولى فإنه إذا لم يشرك فى العبادة فبأن لايشرك فى الإلهية أحرى وإقامة المظهر مقام المضمر فى قوله :«تعبد الله» مشعرة باستحقاقه لها، أو بتعظيم الأمر[1].

قلت: لم أجد من أهل العلم من رجح عود الضمير إلى العبادة المفهومة من «تعبد الله» لأن الضمير مذكر والعبادة مؤنثة، بل لم أجد أحداً منهم أشار إلى مايعود إليه الضمير فى «به» وماذاك إلا لظهوره، نعم، كلامهم عن إعراب كلمة «شيئاً» يدل دلالة ظاهرة على أنهم يرون أنه عائد على لفظ الجلالة «الله» قالوا: «وشيئاً» نصب على أنه مفعول به، أى لاتشركوا به شيئاً من الأشياء صنما أو غيره، أو على أنه مصدر أي لاتشركوا به شيئا من الإشراك جليا أو خفيا»[2].

---

(١) المصدر السابق/٥٢٧.

(٢) ينظر حاشية الشهاب ٣/ ١٣٥، وأبى السعود ٢/ ١٧٥، والألوسى ٥/ ٢٨.

(ط) .. قوله.. وليس الثانى بالأول لئلا يضيع فائدة التكميل.. ولأنه عطف عليه «صلاة الرجل من جوف الليل- وفى عمود الصلاة للحقيقة الشرعية»[١].

قلت، كلامه فيه شيئ من الغموض، وما أرجحه هو أنه يريد أن يقول: إن الثانى وهو النوافل المرادة بقوله «الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة.. وصلاة الرجل من جوف الليل شعار الصالحين..الخ» ليست داخلة في الأول وهو الفروض التى أشار النبى صلى الله عليه وسلم إليها بقوله «تعبد الله ولاتشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت» بل هى مستقلة بذاتها بدليل أنه عطف عليها ماهو من قبيل النافلة لا الفرض وهو «صلاة الرجل من جوف الليل..» والعطف يقتضى المغايرة، أى مغايرة النفل للفرض..

قوله :«الماء، والنار» للحقيقة، وفى «الرجل» كذا، أو للعهد الذهنى، وفى البيت... مثلها «النجم»، و«الصعق»..[٢].

فإنه يريد أن يقول : إن البيت من أسماء الأجناس بقع على كل بيت، ثم غلب على بيت الله الحرام وهى الكعبة المشرفة، كما أن النجم اسم لكل كوكب ثم غلب على الثريا، وكذلك السنة على عام القحط، والبيت على الكعبة، والكتاب على كتاب سيبوية[٣].

****

---

(١) التبيان للطيبى ٥٢٧/٥٢٨.

(٢) التبيان للطيبى/٥٢٨.

(٣) ينظر الكشاف ٣٦/١ فى حديثه عن أصل لفظ «الله» جـ٢/١٠٥، ١٠٦ عند تفسيره لقوله تعالى «ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين». الاعراف ١٣٠.

(ى) قوله «فى المنكر قوله «بعمل» التنكير دليل على الإفراد نوعاً. وقوله : «شيئا» على الإفراد شخصاً أى لايشرك به مايسمى شيئاً، وقله «عظيم ويسير» دال على التعظيم، والتقليل»، وجنة «يحتمل النوع والتفخيم»[1].

قلت : ماقاله فى تنكير «بعمل» فإنه يريد به : ما أسماه البلاغيون وهم يتحدثون عن تنكير المسند إليه التنكير المراد به النوعية، أي أخبرنى عن نوع معين من أفراد هذا العمل المدخل للجنة، والمباعد من النار.

أما ماقاله فى تنكير شيئاً «من أن المراد به الإفراد شخصاً، فهو ماعبر عنه المفسرون «بالتعميم» قال الألوسى: أن لاتشركوا به شيئا من الأشياء حيثما كان أو غيره، فالتنوين للتعميم.

وذكر الألوسى أيضا وجها آخر فى تنكير «شيئاً» عبر عنه بقوله: واختار عصام الدين كونه للتحقير ليكون فيه توبيخ عظيم، أي لاتشركوا به شيئا حقيراً مع عدم تناهى كبريائه إذ كل شيئ فى جنب عظمته سبحانه أحقر حقير[2]. وأنت ترى أن هذا الكلام فى وجهي التنكير خير مما قاله الطيبى.

******

(ك)- قوله فى المؤكد: «كله» تأكيد لذلك لئلا يظن بالحكم خلاف الشمول والإحاطة أي أنه توكيد لرفع التجوز أو الخطأ فى الكلام المؤكد.

******

(ل)- قول الطيبى- فى خواص الجمل المسند إليه أعنى فى قوله : «الصوم جنة» إلى آخرها معرفة لاعتداد فوائدها والمسانيد مختلفة فالإسم

---

(١) التبيان للطيبى /٥٢٨.

(٢) الألوسى ٥/٢٨.

يدل على الثبوت أى الصوم جنة دائماً. والفعل على تقوى الحكم، أى حصول الإطفاء محقق، والمعرف على التخصيص أى هذا هو الشعار لاغير، والأولى فى التحقيق دون الثانية(١).

قلت : يشير الطيبى بقوله «أن تعريف المسند إليه فى عبارة الصوم حنة، إلى آخرها معرفة لاعتداد فوائدها، يشير به إلى ماقاله البلاغيون من أن المسند إليه يعرف لتكون الفائدة أتم لأن إحتمال تحقق الحكم متى كان أبعد كانت الفائدة فى الإعلام به أقوى، ومتى كان أقرب كان أضعف، وبعده بحسب تخصيص المسند إليه والمسند كلما إزداد تخصيصاً ازداد الحكم بعداً، وكلما ازداد عموماً إزداد الحكم قربا»(٢).

وقوله : والمسانيد مختلفة... والفعل على تقوى الحكم أى حصول الإطفاء محقق».

قلت: لايفيد تقوى الحكم وتوكيده وتحقيقه إلا إذا وقع خبراً وتقدمه المسند إليه، كما هو الحال فى «والصدقة تطفئ الخطيئة».

أما قوله «والمعرف على التخصيص...»

فإنه يريد أن تعريف المسند إليه بالإضافة «صلاة الرجل...» وتعريف المسند بالإضافة أيضا «شعار الصالحين» يفيد القصر والتخصيص » أى: ما صلاة الرجل فى جوف الليل الاشعار الصالحين، أى هذه الصلاة هى الشعار لاغيره، وطريق القصر تعريف الطرفين.

أما قول الطيبى:«والأولى فى التحقيق دون الثانية».

فإنه يشير به إلى أن الجملة الإسمية التى خبرها مفرد كجملة «الصوم جنة» دون الجملة الاسمية التى خبرها جملة فعلية ماضوية أو

---

(١) التبيان للطيبى /٥٢٨.

(٢) ينظر الإيضاح/٣٩، والمطول/ ٧٠.

مضارعية وهى جملة «والصدقة تطفئ الخطيئة» أى دونها فى التحقيق والتقرير والتوكيد، فإن الجملة الإسمية الصدر والعجز لاتفيد التوكيد والتحقيق : إلا إذا عدل بها عن الفعلية لهذا الغرض أو كان السياق يدل على إفادتها التوكيد والتحقيق كأن يكون المقام مقتضياً لذلك.

وقول الطيبى : «وفى الدوام أقوى منها».

فإنه يريد أن الجملة الاسمية وهى الأولى «الصوم جنة» أقوى فى إفادة الدوام والاستمرار من الجملة الثانية «والصدقة تطفئ الخطيئة» لأن خبرها فعل وليس بإسم كالزولى.

وقوله :«والثالثة فى الفائدة أقوى منهما»

فإنه يعنى : أن جملة «وصلاة الرجل من جوف الليل شعار الصالحين» أقوى وأكثر فائدة من الجملتين السابقتين وذلك لتعريف كل من المسند إليه والمسند منهما بالإضافة، بخلاف الأولى فإن المسند فيها نكرة والثانية فإنه جملة فعلية.

وقوله :«وفى التحقيق دون الثانية، وفى الدوام كالأولى».

كلام صحيح فإن الجملة الثانية أوكد وأكثر تحقيقاً وتقريراً من الثالثة وذلك لكون خبرها جملة فعلية، ومتفق بين البلاغيين أنها إذا كانت كذلك فإنها تفيد التوكيد والتحقيق، وقد تفيد التخصيص.

أما الجملة الثالثة فهى وإن أفادت التحقيق لوجود سببه فتحقيقها وتأكيدها أضعف من الثانية.

وقوله :«وفى الدوام كالأولى».

يريد : أن الجملة الأولى إذا كانت تفيد الثبوت والدوام لأنها إسمية الصدر والعجز، فكذلك الثالثة تفيد ما أفادته الأولى لأنها إسمية الصدر والعجز مثلها وتزيد عليها القصر والتخصص.

قـــول الطيـــبى :«أو إنا لمؤاخـــذون» مـــبنى على التـــقـــوى لا التخصيص»[١].

فإنه يريد به : أن الإتيـان بالمسند إليه اسم مـفعول «لمؤاخذون» دون الفعل أو الإسم يفيد فقد تقوى وتوكيد الحكم وهو المؤاخذة بما نقول، دونه القصـر والتخصـيص لأنه لايفيـد ذلك إلا إذا كان المسند فعلاً وساعـد على ذلك سياق الكلام.

****

قول الطيبى «فى التقديم والتأخير :«ومما رزقناهم ينفقون» قدم فيه المفعول ليفيد أنهم أسخياء»[٢].

قلت : لم أجد أحداً من المفسرين قال بذلك فى تفسيرهم لقوله تعالى فى سورة البقرة «ومما رزقناهم ينفقون» بل أجمعوا على أن تقديم المفعول وهو الجـار والمجـرور «ومما» مع صلة الموصـول «رزقناهم» يفـيـد: الإهتـمـام والإعتناء: «وقدم المنفق على الفعل اعتناء بما خول الله به العبد وإشعاراً أن المخرج هو بعض ما أعطى العبد، ولتناسب الفواصل»[٣].

أمـا قـول الطيـبى : أو يكون كقـوله :«ويؤثرون على أنفـسـهم، على مذهب المعتزلة» فيشير به إلى مايراه المعتزلة من أن الله تعالى لايرزق إلا الحلال، وأما الحرام فالعبد يرزقه بنفسه».

قال الزمخشرى: وإسناد الرزق إلى نفسه للإعلام بأنهم ينفقون الحلال المطلق الذى يستأهل أن يضاف إلى الله، ويسمى رزقا منه»[٤].

---

(١) التبيان للطيبى /٥٢٨.

(٢) المصدر السابق/٥٢٩.

(٣) البحر المحيط ١/ ٤١، وأبو السعود ١/ ٥٥.

(٤) ينظر الكشاف ١/ ٤٠، وابن المنير نفس الجزء والصفحة.

أما قول الطيبى : أو لمراعاة الفواصل[١].

أقول : كان ينبغى ألا يأتى بأو بل بالواو فيقول : ولمراعاة الفواصل، لأنه لا منافاة بين الفائدتين و«أو» تأتى كثيراً بمعنى الواو.

وقوله : وقدم المجرور على المنصوب فى قوله «كف عليك هذا» للإهتمام، كلام واضح.

(م) قوله :«فى التجرد والثبوت[*] قوله تعبد الله»

يريد به أن الأفعال «تعبد الله» وما عطف عليه أفعال مضارعية، والفعل المضارع يفيد الحدوث والتجدى، والأخير يعبر عنه بالاستمرار التجددى ومابعد هذا أوضح منه.

****

(ن)- قول الطيبى : «فى إثبات المفعول قوله «لاتشرك به شيئاً» القياس فيه أن لايجاء به ليكون على طريقة تنزيل المتعدى منزلة اللازم ليوذن به أن حقيقة الشرك منهى عنها لكن الحامل رعاية القرائن»[٢].

قلت: ماقاله الطيبى فى أن الأصل عدم المجيئ بالمفعول وهو «شيئا، لم أجد أحدا من المفسرين قال به فى قوله تعالى «ولاتشرك به شيئاً» ولا فى قوله «واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً». بل أرى ذكر كلمة «شيئاً» وهى نكرة واقعة فى سياق النفى فتفيد العموم أبلغ من عدم ذكرها وقد تقدم كلام على ذلك فى إعراب هذه الكلمة.

---

(١) التبيان للطيبى/٥٢٩.

(*) أرى أن الصواب : التجدد والحدوث لا التجرد بل هو الصواب عينه، وكلمة «التجرد» وقد تكررت مرتين ومابعدها يخطئ هذا.

(٢) التبيان للطيبى/

أما قوله : لكن الحامل على ذكر وإثبات هذا المفعول هو رعاية القرائن. فإنه يريد بالقرائن- جمع قرينة» والقرينة: معلقة من الكلام جعلت مزاوجة لأخرى. والكلمة الأخيرة من القرينة- وهى كلمة «شيئاً» تسمى فاصلة، فإذا يريد بالقرائن: الفواصل، وفى كلامنا يطلق على القرينة مصطلح «الفقرة» وهو كلام صواب.

وهذا الذى قاله أيضا «لم يقل به أحد فى تفسير ماأتى مشابها لقوله «ولاتشرك به شيئاً».

قول الطيبى :«فى البناء قوله : «يباعدنى أخرج على زنة «فاعلت» للمبالغة فى البعد على أسلوب «يخادعون».

قلت هذا القول مأخوذ مما قاله الزمخشرى فى الجملة السابقة حيث يقول : «فإن قلت : هل للاقتصار بخادعت على واحد وجه صحيح؟

قلت : وجهه أن يقال : عنى به «فعلت» إلا أنه أخرج على زنة «فاعلت» لأن الزنة فى أصلها للمغالبة والمباراة. والفعل متى غولب فيه فاعله جاء أبلغ وأحكم منه إذا زاوله وحده من غير مغالب ولا مبار لزيادة قوة الداعى إليه...»[1].

أما ماقاله الطيبى فى «لمؤاخذون، والسر البلاغى فى بنائه للمفعول، وهو تعظيم الأخذ، أو أنه معلوم لالبس ..الخ فهو كلام واحض لالبس فيه.

****

قوله «فى القصر: «هل يكب الناس على وجوههم» قصر فيه المفعول على الفاعل قصر قلب أو إفراد للدلالة على مزيد الإنكار على تعجبه، كذا

---

(١) الكشاف جـ١/١٥٨، وانظر شرح المفصل لابن يعيش ١٥٩/٧، وانظر بيان ذلك وتفسيره فى حاشية الشهاب ٣١٤/١، ٣١٥.

تعريف الخبر فى «رأس الأمر» إن جعل تعريف عهد كان قصر المسند على المسند إليه وإن جعل جنساً كان عكسه..».

****

قلت : جوز الطيبى أن يكون القصر فى جملة «وهل يكب الناس على وجوههم فى النار إلا حصائد ألسنتهم» وهو قصر طريقة النفى والإستثنا ء، جوز أن يكون قصراً إضافياً قصر قلب حيث إن الرسول صلى الله عليه وسلم قلب اعتقاد المخاطب وهو معاذ فأثبت ماكان يرى نفيه.

وأن يكون قصراً إضافيا قصر إفراد للدلالة على مزيد إنكاره على تعجبه أى أن معاذاً كان يعتقد أن الإكباب على الوجوه بغير حصائد الألسنة، ولكن ما رآه منكراً لأن تكون حصائد الألسنة سبباً للإكباب نزله منزلة من يعتقد أن الإكباب بسبب حصائد الألسنة، وبغيرها فنفى إحدى الصفتين وأفرد الإكباب باحداهما وهى حصائد الألسنة أما قوله فى المقصور والمقصور عليه فى «رأس الأمر» وهو أن تعريف «الإضافة فى «رأس الأمر» إن كان تعريف عهد- أى الإشارة إلى معهود مذكور، فالمقصور المسند والمقصور عليه المسند إليه، أى ما الإسلام إلا رأس الأمر، كقولك : كلمة فلان النافذة، ويد الأمير البانية، أى: ما لنافذة ومالبانية إلا كلمة فلان ويد الأمير فهو قول صحيح، والقصر عليه مستقيم المعنى.

أما إن كان التعريف فى «رأس الأمر» تعريف جنس فالعكس هو الصحيح، أى المقصور هو «رأس الأمر» والمقصور عليه «الإسلام» والمعنى: ما رأس الأمر إلا الإسلام، نحو: الكرم التقوى، أي ما الكرم إلا التقوى، «وإن الدين عند الله الإسلام» أي مالدين المعتد به المعتبر عند الله إلا الإسلام دون غيره. والله أعلم.

******

قوله: في الجارة من في «من جوف الليل» ابتدائية أي يكون ابتداء قيامه للصلاة من جوف الليل ليكون من القائمين لأن من قام فيه قام سائر الأوقات» فهو قول واضح أى أن الصالحين المتهجدين يبدأون قيامهم وتهجدهم من جوف الليل إلى طلوع الفجر ومن حافظ عليها فى هذا الوقت فقد قام سائر الأوقات.

قوله :«ويجوز أن يكون تضمينية بمعنى أخذ الرجل صلاته من جوف الليل شعار الصالحين أي الليل أحق بأن يؤخذ من الصلاة كما يأخذ الدائن حقه من غريمه...»(١).

أي أن الكلام الذي قبل «من» متضمن معنى الأخذ، وعبارة رسول الله صلى الله عليه وسلم «وصلاة الرجل من جوف الليل..» متضمنة معنى أخذ الرجل صلاته من جوف الليل، وكأن جوف الليل مشبه بغريم؛ والرجل يأخذ حقه من جوف الليل. وفى العبارة أيضا تعريض لطيف بالرجل الذى ينام عن حقه ويتكاسل فى طلبه بأنه ليس برجل وإنما الرجل الكامل الرجولة هو الذى يأخذ حقه ولايغفل عنه خاصة وأن هذا الحق الذى يأخذه منج له من عذاب يوم أليم.

قال الطاهر ابن عاشور عند قوله تعالى «تتجافى جنوبهم عند المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعاً»(٢).

والتجافى: التباعد والمتاركة، والمعنى : أن تجافى جنوبهم عن المضاجع يتكرر فى الليلة الواحدة، أى يكثرون السهر بقيام الليل والدعاء لله، وقد فسره النبى صلى الله عليه وسلم بصلاة الرجل فى جوف الليل...

---

(١) التبيان للطيبى/ ٥٣٠.

(٢) السجدة/ ١٥.

وهذا تعريض بالمشركين إذ يمضون ليلهم لايصرفه عنهم تفكر بل يسقطون كما تسقط الأنعام، وقد صرح بهذا المعنى عبد الله بن رواحة بقوله يصف النبى صلى الله عليه وسلم وهو سيد أصحاب هذا الشأن :

يبيت يجافى جنبه عن فراشه
إذا استثقلت بالمشركين المضاجع»[1]

إذاً فى الكلام، معنى فعل محذوف، وفيه أيضا تشبيه خفي في عبارة جوف الليل.

****

قوله «ودلت على» في قوله :«كف عليك» على الاستعلاء دلالة. قوله تعالى :«أولئك على هدى من ربهم»[2].

قلت: دلت «على» على الاستعلاء في «عليك»: ويعنى بها صلى الله عليه وسلم «اللسان» لأن اللسان ربما لاتستطيع أن تحكمه وتضبطه ومادمت لاتملك منعه فهو مستعل عليك لامحالة ولو كان أمره سهلاً لما خصه صلى الله عليه وسلم بهذا.

أما دلالة على فى قوله «أولئك على هدى من ربهم» فقد قال المفسرون فيها ثلاثة أوجه :

الأول: أنها استعارة تبعية مفردة بأن شبه تمسك المتقين بالهدى باستعلاء الراكب على مركوبه فى التمكن والاستقرار فاستعير له الحرف الموضوع للإستعلاء.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٩/٢١.

(٢) البقرة ٢/٥.

الثانى: أن يشبه هيئة منتزعة من التقى والهدى وتمسكه به بالهيئة المنتزعة من الراكب والمركوب واعتلائه عليه.

الثالث: أن يشبه الهدى بالمركوب على طريق الإستعارة بالكناية وتكون «على» قرينة لها[١].

قوله: فى الإجراء على خلاف الظاهر قوله : «صلاة الرجل من جوف الليل شعار الصالحين» فإن الظاهر أن يقال: شعار صلاحه.. ».

فهو كما قال، حيث كان مقتضى الظاهر أن يعيد الضمير على الرجل المتقدم ذكره في قوله :«صلاة الرجل» والسر فى الإخراج على خلاف الظاهر هنا تعميم الحكم فى جميع الصالحين بدلا من صلاح الرجل الواحد.

****

قوله: في الوصل قوله :«تعبد الله عام عطف عليه»[٢] تقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان» من عطف الخاص على العام لأن عبادة الله تشمل كل ما عطف عليها، وسره البلاغى تعظيم شأن الخاص، وفى التعبير بالمضارع، تعبد تقيم، تصوم.. إلخ لأنه هو المناسب لإنشاء هذه الشعائر وتجددها واستمرارها.

وقد عطفت جمل تقيم، وتؤتى، وتصوم، على سابقتها تعبد، للتوسط بين الكمالين لاتفاقهما فى الخبرية لفظا ومعنى.

وهذه المعطوفات كلها متطلبات شرعية يجمع بينها جامع خيالى كما يقول الطيبى أما العطف فى قوله «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد.. » فإن الجهة الجامعة بين معطوفاته هي العرف العام

---

(١) انظر روح المعاني للآلوسي ١/١٢٤.

(٢) التبيان للطيبى/ ٥٣٠، ٥٣١.

الذي يجمعها، فعند ذكر «رأس الأمر الإسلام»- يستدعى ذكره- الأمر الآخر«عموده الصلاة، والثانى يستدعى الثالث وهو ذروة سنامه.. الجهاد، فالعرف العام هوالذي يجمعها أو مراعاة النظير.

قوله : في الفصل قوله «تعبد الله» فصل لكونه بيانا للجملة الأولى أو استيافا[1].

قلت : فصل جملة تعبد عما قبلها فلأن هذه الجملة بمنزلة عطف البيان لما قبلها وهو الأولى وقد تكون استئنافاً.

وكذا الفصل الذي وقع بين قولي معاذ رضى الله عنه وقول رسول الله صلي الله عليه وسلم فقد فصل بناء على السؤال الذى يستصحبه مقام المقاولة كما يقول الطيبى من نحو: ماذا قال معاذ؟ وماذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

قوله : وكذا فصل قوله تعالى :«يدعون ربهم خوفا وطمعاً» عما قبله بيانا...» وهو قوله «تتجافى جنوبهم عن المضاجع...» فكأن سائلاً سأل لماذا تتجافى جنوبهم عن المضاجع؟ فقال يدعون ربهم ...» ففصل الثانية عن سابقتها لأنها نزلت منزلة عطف البيان منها.

****

أما ما قاله عن إيجاز الحذف فما قوله «يدخلنى» على غير مذهب الخليل، فإنه من قبيل حذف فعل الشرط وهو من قبيل حذف الكلمة.

وماقاله فى المعطوف عليه «أو إنا لمؤاخذون» «وهل يكب الناس» فإن المحذوف فيهما من قبيل حذف الجملة.

ثم نبه على الإيجاز فى مواضع حذف الموصوف نحو سألتنى عن عظيم، أي أمر عظيم وفيه إقامة الصفة مقام الموصوف تفخيماً لشأنهما،

---

(١) التبيان للطيبى /٥٣١.

وكـذلك كف عليك هذا » فـفـيـه وضع اسم الاشـارة مـوضع الإسم الصـريح «لسانك» لأن في إسم الإشارة دلالة حسية على المراد وقد حوت هذه العبارة كثيراً من المعانى نحو ترك الكذب، والسيئات، والغيبة والنميمة والبذئ الفـاحش من الألفـاظ ولذلك أشار الطيـبى إلى أن هذه العبـارة من جـوامع الكلم.

ويريد الطيبى بإيجاز التقدير ما سماه البلاغيون بالمساواة وتسميتها إيجاز تقدير مصطلح ابن الأثير (١).

ويريد بالإيجاز الجامع مايسمى عند البلاغيين بإيجاز القصر.

في الإطناب جعل الطيبى المقدمات والتمهيدات التي سبقت الإجابة على كل سـؤال من الإطناب، وسـرة تشـويق المخـاطب إلى الجـواب، وإثارة مشاعره نحوه حتى إذا سمعه تمكن من نفسه كل التمكن.

فـقـول الطيـبى :«فى الإطناب: هو أن مطلوب مـعـاذ في قـوله : «أخـبـرني بعـمل» لما كان من الوسـائل السنيـة مـهـد- صلوات الله عليـه وسلامه- للجواب بمقدمة ونبه فيها على فخامة المسؤول بأن أكدها تأكيد بليغا، وعظمها غاية التعظيم، وكذا كلما قصد أن يجيب عن سؤال جعل له تمهيداً، أو توطئة ليمكنه فى الذهن...»(٢).

قلت: المقدمات والتمهيدات التى جاءت فى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم عن معاذ رضى الله عنه هى على النحو الآتى:

قوله صلى الله عليه وسلم :«لقد سألتنى عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله» حيث نزل خالى الذهن منزلة المنكر فأكد له الخطاب.

---

(١) المثل السائر ٢/٣٦٧.

(٢) انظر التبيان للطيبى /٥٣٢.

والجواب هو «تعبد الله ولاتشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، وأن زيادة لفظتى «تقيم» و«تؤتى» لزيادة الإهتمام بأمرهما، وكذا البيت[1] فيه حث وبعث، وكذا زيادة على وجوههم، أو مناخرهم فيها من التهويل والتخييل مافيها.

المقدمة الثانية قوله «ألا أدلك على أبواب الخير».

وجوابه هو «الصوم جنه- والصدقة تطفئ الخطيئة..» وفى الجواب زيادة وكان يكفى أن يقال «الصوم- والصدقة، وقيام الليل».

أما التمهيد الثالث: ألا أخبرك برأس الأمر، وعموده وذروة سنامه، فقد أعاد فى الجواب الألفاظ التي جاءت في التمهيد وهي «رأس الأمر، وعمود، وذروة سنامه» ففيها إطناب مراد منه العناية بموضوع الحديث والترغيب في القيام به، لأنه قد كشف له عن أهميته ومنزلته عند الله، وهو الجهاد، فالمقام مقام إرشاد، وأي مقام أدعي منه للإطناب كما يقول الطيبي.

قوله :«فى الإنشاء قوله : «أخبرنى» ظاهره أمر لكنه استدعاء[*]. وقوله «كف عليك» أمر تنزيه». قلت : أخبرنى أمر مستعمل فى غير معناه الوضعى لأن المراد منه طلب الإرشاد والتوجيه وقوله «والعدول عن الإنشائى في قوله :«تعبد الله لفائدتين :

أحدهما: أن المزمور كأنه سارع إلى الامتثال، وهو يخبر عنه إظهاراً للحرص بوقوعه. وهذا كلام واضح ومفهوم.

---

(١) «يبيت يجافى جنبه عن فراشه» وقد تقدم.

(*) يبدو أن المحقق لم يتنبه إلى الخطأ فى هذه العبارة إذ الصحيح أن يقول «أخبرنى ظاهره» أمر لكنه دعاء هذا ما أراه، والله أعلم.

وثانيهما: وهى من دقائق الطيبى- رحمه الله- «أن لاينسب إلى عدم الإمتثال لأمره إن قصر المأمور أي لو قال «أعبد الله» أو لئلا يكون المأمور مسخوطاً عليه إن لم يمتثل» أي عندما قال «تعبد الله» إن لم يمتثل ذلك فليس مسخوطاً عليه لأنه فى صيغة الخبر أما لو قال «أعبد الله» ولم يمتثل لهذا فسيكون مسخوطاً عليه.

قوله وعن الخبري «هل يكب الناس» في مزيد إنكار» من سؤال معاذ رضى الله عنه «أو إنا لمؤاخذون». قلت : هو انشائى لا خبرى.

وتأدب معاذ فى النداء «يا» للدلالة على بعد منزلته، ولكون المتلو بعد النداء معنيا بشأنه وفيه تشويق لماسيلقى إليه بعده وأما قوله «ألا» فهى مركبة من همزة الإستفهام و«لا» النافية ليفيد تحقيق مابعدها، وهى «حرف استفتاح يؤتى به لتنبيه المخاطب من غفلته حتى يتجه لسماع مايلقى فيقر في قلبه، ولذا لايؤتى بها إلا فى الأمور المهمة[1].

وقوله :«ثكلتك أمك يامعاذ» دعاء على صيغة الإخبار ومعناه التعجب، وعلى أسلوب قاتله الله ما أشجعه»[2]. وفيه إثارة لذهن المخاطب.

وأما النظر من جهة البيان ففيه أبحاث :

(أ) قوله «فى التشبيه : «الصوم جنة» من التشبيه المضمر الأداة المحذوف الوجه للمبالغة. شبه الصوم وهو معقول بالجنة وهو محسوس. والجامع منع إصابة المكروه»[3].

---

(١) انظر دليل الفالحين ٢/ ١٨٠.

(٢) التبيان للطيبى /٥٣٤.

(٣) التبيان للطيبى/٥٣٤.

قلت هو من التشبيه البليغ وهو ما كان محذوف الوجه والأداة، والجنة: هى مايستجن بها العبد، كالمجن الذى يقيه عند القتال من الضرب، فكذلك الصيام يقي صاحبه من المعاصي في الدنيا، وقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله «الصوم جنة من النار كجنة أحدكم من القتال».

فإذا كان له جنة من المعاصى، كان له فى الآخرة جنة من النار، وإن لم يكن له جنة في الدنيا من المعاصي، لم يكن له جنة في الآخرة من النار»[1].

****

قول الطيبى : «الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار» من التشبيه الواقع على التمثيل، شبهت الحالة المتوهمة للصدقة الموجبة لإذهاب الخطيئة بحالة الماء المطفئ للنار»[2].

قلت: يريد به: أنه تشبيه تمثيلى، أى تشبيه حالة بحالة أو هيئة بهيئة، ويعنى بقوله «شبهت الحالة المتوهمة..الخ» أن أطفاء الصدقة للحطيئة ليس وصفا حقيقيا لها، لأن الإطفاء حقيقة يكون بالماء للنار وهو بهذا يشير إلى أن في «تطفئ الخطيئة» استعارة وليس الكلام من قبيل الحقيقة، وسيأتى كلامه على الإستعارة فى هذه الجملة بعد ذلك.

ووجه الشبه: حالة إزالة كل منهما أي الصدقة والماء لمايلابسه.

****

وقول الطيبى :«رأس الأمر الإسلام» من تشبيه المعقول بالموهوم. أى الإسلام كالرأس لذلك الأمر، فعكس التشبيه مبالغة.

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب ٢/١٣٩.

(٢) التبيان للطيبى/٥٣٤.

قلت، يعنى به أن المشبه وهو الإسلام أمر عقلى يدركه العقل، وهو مصدر وكل المصادر من قبيل الأمور المعنوية، أما المشبه به وهو رأس الأمر فهو موهوم، ويعنى بالموهوم ما عناه في الكلام السابق، وهو أن في المشبه به وهو رأس الإسلام استعارة، فالكلام من قبيل المجاز لا الحقيقة وسيأتى كلامه على هذه الاستعارة.

أما قوله : «فعكس التشبيه» فهو يريد: أن تشبيه الإسلام برأس الأمر من قبيل التشبيه المقلوب أو المعكوس، أو غلبة الفروع على الأصول كما سماه بذلك ابن جنى أو الطرد والعكس كما سماه بذلك ابن الأثير، والغرض منه المبالغة، فالأصل أن يشبه الإسلام برأس الأمر فعكس التشبيه وجعل المشبه مشبها به، والمشبه به مشبها، وهذا يفيد المبالغة فى كون الإسلام رأس لكل أمر. وهذا النوع من التشبيه يكون الغرض منه عائدا على المشبه به، وهو مبنى على إيهام أن المشبه به أتم فى وجه الشبه من المشبه، وهذا ما نراه فى قول محمد بن وهيب فى مدح المأمون:

وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح

وقول ذي الرمة :

ورمل كأوراك العذارى قطعته إذا ألبسته المظلمات الحنادس[1]

******

قول الطيبى: «فى المجاز المرسل المقيد أطلق الخطيئة، وأريد نار جهنم اطلاقاً الاسم السبب على المسبب»[2].

---

(١) انظر هذا النوع من التشبيه : الخصائص ١/ ٣٠٠، والمثل السائر ٢/١٥٦، والايضاح /٣٦١، والمفتاح /١٦٣ ط/الحلبى.

(٢) التبيان للطيبى /٥٣٤.

قلت: يريد أن المجاز المرسل في هذه الكلمة علاقته السببية فقد أطلق السبب وهو الخطيئة وأريد بها نار جهنم، لأن الخطيئة سبب لدخول النار والنار مسببة عنها.

وقوله «وعكسه قوله :«تقيم الصلاة لأن الإقامة مجاز عن تعديل أركانها، أو عن التجلد، والتشمر، فإن اعتدال الأركان والتجلد، والتشمر سبب لإقامتها». فإنه يريد أن فى لفظ «تقيم» مجازا مرسلاً علاقته السببية، فقد أطلق المسبب وهو الإقامة وأريد السبب وهو تعديل أركانها، أو التجلد والتشمر، وكل منهما سبب لإقامتها.

وكلام الطيبى في «تقيم الصلاة» مأخوذ من بعض ما قاله الإمام الزمخشرى في «ويقيمون الصلاة..» ولكن شتان بين الآخذ والمأخوذ منه، يقول الزمخشرى «ومعنى إقامة الصلاة تعديل أركانها وحفظها من أن يقع زيغ فى فرائضها وسننها وآدابها من أقام العود إذا قومه أو الدوام عليها والمحافظة عليها، كما قال عز وعلا «الذين هم على صلاتهم دائمون» «والذين هم علي صلواتهم يحافظون»، من قامت السوق إذا نفقت قال :

أقامت غزالة سوق الضراب لأهل العراقين حولا قميطا

لأنها إذا حوفظ عليها كانت كالشئ النافق تتوجه إليه الرغبات ويتنافس فيه المحصلون، وإذا عطلت وأضيعت كانت كالشئ الكاسد الذى لايرغب فيه.

أو التجلد والتشمر لأدائها وأن لايكون فى مؤديها فتور عنها ولا توان من قولهم : قام بالأمر وقامت الحرب على ساقها، وفى ضده قعد عن لأمر وتقاعد عنه إذا تقاعس وتثبط.

أو أداؤها، فعبر عن الأداء بالإقامة لأن القيام بعض أركانها كما عبر عنها بالقنوت، والقنوت بالقيام والركوع وبالسجود، وقالوا: سبح إذا صلى لوجود التسبيح فيها «فلولا أنه كان المسبحين»(١).

وقد فسر الزمخشري الإقامة بأربعة أوجه، على الأولين استعارة تبعية وعلى الأخيرين مجاز مرسل(٢).

قوله :«في الاستعارة قوله : «يدخلني» أسند إلى العمل، وهو في الحقيقة لله- تعالى- وكذا إسناد الكب إلي الحصائد..»(٣).

قلت : هذا التفسير لايصح على الاستعارة وإنما يصح على المجاز العقلى، وهذا هو المشهور الذى عليه جمهور أهل العلم، فقد أسند الفعل فى الجملتين إلى فاعله السببى لا إلى فاعله الحقيقى وهو الله تعالى، فهو مجاز عقلى علاقته السببية.

فكان ينبغى أن يقول : في المجاز العقلى قوله «يدخلنى»..الخ

قوله «وذهب الشيخ - أي السكاكى- إلى أنه من الاستعارة المكنية. شبه العمل لكونه سبباً للمطلوب بالفاعل الحقيقى تشبيهاً بليغاً، وأدخله فى جنسه، ثم خيل أنه هو لايغر..الخ.

قوله : وذهب الشيخ، لأن كلامه السابق تفسير للكلام على أنه مجاز عقلى، وقوله بعد ذلك «وذهب الشيخ» إنتقال إلى رأى آخر فى هذا النوع من المجاز وهو أنه استعارة بالكناية لامجاز عقلى، يقول السكاكى: «..وإلا فالذي عندي هو نظم هذا النوع فى سلك الاستعارة بالكناية، يجعل الربيع

---

(١) الكشاف ١/١٢٩.

(٢) ينظر حاشية الشهاب ١/٢١٨-٢٢٣.

(٣) التبيان للطيبى /٥٣٤.

استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقى بوساطة المبالغة فى التشبيه، على ماعليه مبني الاستعارة كما عرفت، وجعل نسبة الإثبات إليه قرينة للاستعارة، ويجعل الأمير المدبر لأسباب هزيمة العدو استعارة بالكناية عن الجند الهازم، وجعل نسبة الهزم إليه قرينة للاستعارة»[١]. وقد رد الخطيب القزوينى عليه وأبطل ماذهب إليه[٢].

قول الطيبى: قوله: «أبواب الخير» من المصرحة التخييليه. شبه الخير بدار فيها من كل ما تتمناه النفس، ثم بولغ حيث أدخل الخير فى جنس الدار، فتوهم له مايلازم الدار، وهو الباب، ثم شبه المجموع بالباب الحقيقى ثم أطلق اسم المحقق علي التوهم، وجعل إضافة الباب إليه قرينة»[٣].

****

قلت هذا القول قد ذهب فيه إلى رأي السكاكي الذي قسم الاستعارة إلى أقسام عدة، وقسم التصريحية منها إلى ثلاثة أقسام: إلى التصريحية التحقيقية مع القطع، والتصريحية التخييلية مع القطع، مثل تشبيه المنية بالسبع فى اغتيال النفوس فى قول أبي ذؤيب الهذلى:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لاتنفع

أما القسم الثالث للاستعارة التصريحية عنده فهو التصريحية المحتملة للحقيقة والتخييل[٤].

---

(١) مفتاح العلوم /٤٠١.

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة /١٠٧ ط/ خفاجى.

(٣) التبيان للطيبى /٥٣٥.

(٤) مفتاح العلوم /٣٧٥-٣٧٧.

وما ذكره الطيبى فى «أبواب الخير» هو من الاستعارة التصريحية التخييلية مع القطع عند السكاكى.

وغير السكاكي يرى أنها استعارة مكنية قرينتها تخييلية لأن التصريحية عندهم هي ما صرح فيها بالمشبه به دون المشبه ودون لازم من لوازم المشبه به، والمكنية هي ما ذكر فيها المشبه ولازم من لوازم المشبه به المحذوف، وهنا المشبه مذكور«الخير» والمشبه به محذوف وهو«الدار» ولازمه مذكور مثبت للمشبه. وهو «أبواب» فهي استعارة بالكناية فى مصطلح البلاغيين ماعدا السكاكى.

******

قوله :«تطفئ الخطيئة» من التبعية لأن الأصل فيه أن يقال : إذهاب الصدقة الخطيئة كإطفاء الماء النار. ثم إستعير الإطفاء للإذهاب ثم سرى معنى الإطفاء إلى تطفئ»[1].

قلت : هذا كلام البلاغيين، بجامع الإزالة والإفناء في كل، ولكن إجراء الإستعارة التبعية عند البلاغيين غير ما جرى عليه الطيبى، فإنه بعد بيان المشبه والمشبه به والجامع بين الطرفين يقولون: ثم إشتق من الإطفاء بمعنى الإذهاب تطفئ بمعنى تذهب على سبيل الإستعارة التبعية.

****

قوله :«حصائد ألسنتهم» محتمل لأن تكون استعارة مصرحة تحقيقية لكون مايسمع من لاإنسان، وهو الشبه المتروك، وهو محقق. وأن يكون تخييلية، وذلك بأن يشبه اللسان بالمنجل، ثم يبالغ فيه حتى يتوهم للسان مايلازم المنجل»[2].

(١ . ٢) التبيان للطيبى / ٥٣٥.

قلت : كلام الطيبى صحيح، فإنا إذا قلنا إن الإستعارة فى «حصائد» فهي استعارة تصريحية تحقيقية، وإن قلنا أنها في «الألسنة» فهى مكنية قرينتها تخييلية. وهو يرجح أن تكون تصريحية تحقيقية بدليل كلامه عليها مرة أخرى في مبحث طرفي الاستعارة والجامع، فكان كلامه عليها باعتبار أنها استعارة تصريحية فى كلمة «حصائد»[١].

وتدرك دقة كلام الطيبى وأنه يسير فى كلامه علي الاستعارة فى الحديث الشريف على ماقاله البلاغيون إذا قارنت بين ماقاله في «حصائد ألسنتهم» وماقاله سابقه ابن الأثير الذى عد هذا التركيب تشبيها مركبا. قال : «فقوله «حصائد ألسنتهم» من تشبيه المركب بالمركب، فإنه شبه الألسنة وماتمضى من فيه من الأحاديث التى يؤاخذ بها بالمناجل التي تحصد النبات من الأرض»[٢].

ولا صواب فى هذا القول، فليس هو تشبيها مركبا ولامفرداً.

قوله :«ويحتمل أن يكون «تطفئ الخطيئة من الاستعارة التمثيلية بأن يشبه حالة الصدقة وكونها حيث تذهب الخطيئة، وتمحوها بحالة الماء، وكونه يطفئ النار الشاعلة، ثم استعمل هنا ما كان مستعملا هناك.

****

قلت: قول الطيبى فى احتمال أن يكون «تطفئ الخطيئة» من الإستعارة التمثيلية فكلام صحيح، والمدار علي الجهة المعتبر، فإن كانت فى لفظ «تطفئ» فهى تبعية وإن كانت فى التركيب كله فهى استعارة تمثيلية أو مجاز مركب.

---

(١) التبيان للطيبى/٥٣٦.

(٢) المثل السائر ١/١٣٦.

قول فى كلمة «شعار الصالحين»

لقد تحدث الطيبى عن كلمة «شعار الصالحين» في الفقرة (د) في الترشيح والتجريد وفي الفقرة (ج) «في الكناية» وقد ذهب في حديثه عنه في الموضع الأول إلى أن كلمة «شعار» تحتمل أن تكون بمعنى الثوب الذى يلى الجسد فيكون ترشيحا لاستعارة «جوف الليل» استعارة مكنية فى الليل، أو تصريحية أصلية فى «جوف» لأنه ملائم للمستعار منه- وهو ماله جوف من الحيوان إنسانا أو غيره- وإن جعل بمعنى العلامة كان تجريداً، لأنه ملائم للمستعار له وهو الليل.

وقد ذهب في حديثه عن الشعار فى الموضع الثانى إلى أنه بمعنى الثوب الذي يلى الجسد، وهذامايفهم من كلامه عنه فى هذا الموضع، وإن كان لم يصرح بذلك(١).

وأقول : إننى أرجح- بل أعتقد أنه هو الصواب- أن الشعار هنا بمعنى «العلامة» فالرسول صلى الله عليه وسلم يقصد أن قيام الليل علامة لهؤلاء القوم المتهجدين القائمين راكعين ساجدين يدعون ربهم خوفا وطمعا في هذا الوقت الذي ينام فيه أكثر الناس، والسياق يرجح هذا المعنى، أما المعنى الآخر وهو: الثوب الذى يلي الجسد فغير مقصود للنبى صلى الله عليه وسلم ولايدل عليه سياق الكلام ومدح هؤلاء القوم.

قال صاحب المصباح المنير: والشعار بالكسر: ماولي الجسد من الثياب.. والشعار أيضا: علامة القوم في الحرب وهو ماينادون به ليعرف بعضهم بعضا، والعيد شعار من شعار الإسلام، والشعائر أعلام الحج وأفعاله الواحدة شعيرة»(٢).

---

(١) انظر التبيان للطيبي/٥٣٦.

(٢) المصباح: «شعر».

ويؤكد ماذهبت إليه من أن المراد بالشعار العلامة التى تنشأ عن الصلاة فى هذا الوقت المبارك الذى ينزل فيه ربنا إلى السماء الدنيا قوله تعالى فى سورة الفتح :«محمد رسول الله والذين معه أشداء علي الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود، ذلك مثلهم في التوراة...»[١] قال الطاهر في تفسيره «السيما: العلامة، وهذه سيما خاصة هي من أثر السجود»[٢].

******

قول الطيبى:«فى القرائن نسبة تطفئ إلى الصدقة نسبة التبعية إلى فاعلها، وإلى الخطيئة إلى مفعولها»[٣].

قلت: يعنى به: أن القرينة اللفظية للإستعارة التبعية قد تتعدد فتكون أكثر من أمر واحد، وهنا القرينة الدالة علي الإستعارة في «تطفئ» إسناد هذا الفعل إلي ضمير الصدقة، أي القريبة: الفاعل، لأن الصدقة لاتطفئ وإنما يطفئ الماء، وأيضا إيقاع الفعل تطفئ على مفعوله وهو الخطيئة لأن الخطيئة لاتطفأ، لأن الذي يطفأ هو النار. فالقرينة إذا فى الفاعل والمفعول جميعاً.

كما فى قول الشاعر :

تقرى الرياح رياض الحزن مزهرة
إذا سرى النوم فى الأجفان أيقاظا[٤]

---

(١) الفتح/٢٩.

(٢) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٠٥.

(٣) التبيان للطيبى /٥٣٥.

(٤) ينظر الايضاح ٥/ ٩٨ طبعة خفاجى.

فـالقـرينة هنا: تعلق الفـعل «تقـرى» بالفـاعل الرياض والمفـعـول «أيقاظا».

قـول الطيـبى «فى توالي الإستـعـارات قـوله : «رأس الأمـر الإسـلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد» إستعارات متعاقبة على طريقة مراعاة النظير كقول امرئ القيس :

فقلت له لما تمطى بصلبـــه وأردف أعجازاً وناء بكلكـــل

فجعل الدين كالبازل، واستوفى له معظم أركانه فى الرأس والظهر، وذروة «السنام»[1].

قلت : يريد الطيبى أن يقول : إن كلام النبى صلى الله عليه وسلم قد جمع عدة استعارات فعندما أراد تشبيه الدين بالبعير البازل إستعار له الرأس والظهر وذروة السنام، وكلها استعارات مكنية، حيث شبه الأمر بماله رأس، والصلاة بالبناء القائم على أعمدة، والجهاد بالبعير الذي له سنام وذروة، ويحتمل أن تكون تلك الإستعارات أصلية فى نفس الرأس والعمود وذروة السنام.

أما كون الجمع بين الرأس والعمود والسنام مراعاة نظير فهو قول واضح إذا عرفنا أن مراعاة النظير هو عبارة عن أن يجمع فى الكلام بين أمر أو أمور ومايناسبه أو يناسبها لابالتضاد، وكذلك الأمر هنا فإن ذكر الرأس يستدعى ذكر العمود وذكر العمود يستدعى ذكر الذروة والسنام، فهى أمور متجانسة فيما بينها أشد التجانس. وهكذا أما تنظير الطيبى للجمع بين عدة استعارات ببيت أمرئ القيس فهو تنظير صحيح، فإنه لما أراد وصـف

---

(١) التبيان للطيبى /٥٣٦.

الليل بالطول استعار لوسطه اسم الصلب وجعله متمطيا، ثم ثنى فاستعار الأعجاز لأواخر الليل وجعل بعضها يردف بعضا، ثم ثلث فاستعار الكلكل لما مضى من أوله إلى وسطه وقد وصف الخطيب تلك الإستعارات بالغرابة. قال: «وقد تحصل الغرابة بالجمع بين عدة استعارات لالحاق الشكل بالشكل»[1] ثم قال: وأراد وصف الليل بالطول فاستعار له صلبا يتمطى به إذ كان كل ذى صلب يزيد فى طوله عند تمطيه شئ وبالغ فى ذلك بأن جعل له أعجازا يردف بعضها بعضا، ثم أراد أن يصفه بالثقل على قلب ساهره والضغط لمكابده فاستعار له كلكلاً ينوء به»[2] ولإبن الأثير كلام طيب رد فيه علي ابن سنان «عند تعليقه على البيت السابق» وخطأه في رده على الآمدى ووصفه لكلام الآمدى بأنه غير مرضى[3].

****

وماوصفت به استعارات امرئ القيس من الغرابة وغيرها هى أوصاف لاستعارات الحديث النبوى أيضاً.

ما ذكره الطيبى في مبحث طرفي الاستعارة والجامع فهو أربعة، وهى:

أولهما: استعارة محسوس لمحسوس بوجه حسي، في قوله «حصائد ألسنتهم، فالمستعار منه يقتطع من الحشيش سواء كان رطبا أم يابساً، والمستعار له مايسمع من الكلام البذئ والطيب والجامع بينهما خلط النفيس بالردئ دون تمييز.

---

(١) الإيضاح/ ٢٧٥-٢٧٦، دار إحياء العلوم.

(٢) المرجع السابق /٢٧٦.

(٣) ينظر المثل السائر ٢/ ١١٤ ومابعدها.

ثانيهما: استعارة محسوس لمعقول في قوله «أبواب الخير» فالمستعار منه «الدار» وهو محسوس والمستعار له «الخير» وهو معقول والجامع بينهما كون الشئ مرغوبا فيه.

ثالثهما: استعارة محسوس لموهوم إذا جعلت الاستعارة في الباب.

رابعهما: استعارة مفعول لمعقول، وهو استعارة الإطفاء للإذهاب[١].

أما قوله: «إن في صلاة الرجل من جوف الليل شعار الصالحين» كناية من النوع الذي يكون المطلوب به تخصيص الصفة بالموصوف «كناية عن نسبة في الإثبات» مثل قولهم «الكرم بين برديه والمجد بين ثوبيه»[٢].

فبناء على ما ذكرته في كلمة «شعار» ورجحته لايكون في هذا الكلام كناية لاعن نسبة ولا عن غيرها، بل هو من قبيل الحقيقة، والتصريح، وبهذا يكون التنظير بالقول العربي لامحل له، لأن في قولهم كناية عن نسبة في الإثبات، ولاكناية في جملة الحديث.

أما قوله: إن التجافي عن المضاجع كناية عن صلاة التهجد كقول الشنفري:

يبيت بمنجاة من اللؤم بيتها ... إذا مابيوت بالملامة حلت

قلت: إن ماقاله المفسرون من أن «تتجافى جنوبهم عن المضاجع كناية عن عدم النوم هو الأرجح، أما كونهم يصلون صلاة التهجد، فهو مايفهم من تلك الكناية، لأن عدم النوم إنما كان لأنهم يقومون لصلاة التهجد ويفهم

---

(١) التبيان للطيبي /٥٣٦.

(٢) انظر المرجع السابق/٥٣٧.

أيضـا من «يدعـون ربهم خـوفـا وطمـعـا». فـهـو المعنى المراد من تجـافى المضاجع.

وعلى أن الكناية كناية عن عـدم النوم، تكون كناية عن نسـبـة فى النفي، لأن تجافي الجنوب عن المضاجع يتضمن النفى أي نفي الإقتراب من المضاجع عن الجنوب، فالتجافي معناه التباعد والتنحي وهذا يفيد نفي الإقتراب من المضاجع عن الجنوب، فيكون قد كني بهذه النسبة المنفية عن النسبة المنفية المرادة وهي المكني عنها وهي عدم النوم، فيكون التنظير ببيت الشنفري في هذه الحالة صحيحاً، أما على قوله بأنه كناية عن صلاة التهجد فتكون الكناية عن نسبة في الإثبات، حيث قد أثبت التجافي للجنوب والمراد إثبات قيامهم لصلاة التهجد، وعلي هذا الوجه يكون التنظير ببيت الشنفري غير صحيح.

هذا ما أرجحه ومافتح الله به علي، قد يكون خطأ وقد يكون صواباً.

والله تعالى أعلم

قائمة المراجع

١- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود بن محمد العمادي الحنفي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

٢- الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني، شرح وتعليق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، الطبعة الثانية، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

*- الإيضاح فى علوم البلاغة للخطيب القزويني، راجعه وصححه الشيخ بهيج غزاوي، الطبعة الأولى، دار احياء العلوم، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٣- التبيان في علم المعاني والبديع والبيان للعامة شرف الدين حسين بن محمد الطيبي، تحقيق الدكتور هادي عطيه مطر الهلالي، الطبعة الأولي، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، عالم الكتب مكتبة النهضة العربية.

٤- تفسير البحر المحيط لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسى الغرناطى، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، دار الفكر للنشر والتوزيع.

٥- تفسير التحرير والتنوير تأليف الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

٦- جامع العلوم والحكم فى شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم لأبى الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي الشهير بابن رجب، تحقيق شعيب الأرناؤوط، إبراهيم باجس، الطبعة السادسة، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، مؤسسة الرسالة.

٧- حاشية الشهاب المسماه عناية القاضى وكفاية الراضى على تفسير البيضاوي، دار صادر، بيروت.

٨- الخصائص، تأليف أبي الفتح عثمان بن جني حققه محمد علي النجار، دار الكتب، بدون تاريخ.
٩- دلائل الأعجاز، تأليف عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٤٠٤هـ.
١٠- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، الصديقي الشافعي، الطبعة العاشرة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان.
١١- روح المعانى في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين السيد محمد الألوسي البغدادي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
١٢- شرح المفصل، تأليف موفق الدين بن يعيش النحوي، عالم الكتب.
١٣- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل لأبى القاسم جار الله الزمخشري، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.
١٤- كتاب الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الإعتزال للإمام ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الإسكندري المالكي، دار المعرفة.
١٥- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء بن الأثير، تقديم وتحقيق الدكتور أحمد الحوفي، والدكتور بدوي طبانه الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، منشورات دار الرفاعى بالرياض.
١٦- المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير للرافعى لأحمد بن محمد الفيومي، تحقيق الدكتور عبد العظيم الشناوي، دار المعارف ١٩٧٧م.
١٧- مفتاح العلوم لأبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي، ضبطه وشرحه الأستاذ نعيم زرزور، الطبعة الأولي، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٨- المطول على التلخيص، لسعد الدين التفتازانى، ١٣٣٠هـ.